الإنسان بين الجبر والاختيار
دراسة كلامية و فلسفية

أ.م.د. حسن حسين صديق د. محمد عبدالباقي ابراهيم

المقدمة

إن الحديث في موضوع كهذا يعد من الموضوعات الشيقة والصعبة في أن واحد، فهي شيقة لانها تعطي نشوة للعقل في سفره في عالم يختلف عن عالم المادي، ليس هناك من عواقب مادية يضع امام العقل حواجز و عواقب، في حين يكون صعبا للعقول البطيئة الفهم ان يهضم جوهر المسألة لانها تتعارض مع مبادئها القطعية كونها تابعة لمذهب او مدرسة او اتجاه. من هنا دخلنا في دراسة هذه المشكلة وقد حررنا انفسنا من تلك القيود المفروضة علينا من قبل المدارس والمذاهب والاتجاهات التي درست هذه المشكلة كي نستطيع ان نصل الى رأي اخر ربما يكون جديدا نوعا ما و ينسجم مع مستجدات عصرنا.

جاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث رئيسة، تناولنا في التمهيد اهمية هذه الدراسة و ضرورتها. في حين تناولنا في المبحث الاول الجذور الاولية لهذه المشكلة قبل ان يظهر المدارس الكلامية والفلسفية عند بعض الشخصيات ذات ميول فلسفية. وتناولنا في المبحث الثاني **الانسان بين حرية الارادة والقضاء والقدر** متطرقين الى اراء مختلفة حول هذا الموضوع و مستعرضين حجج كل طائفة عن المشكلة. وفي المبحث الثالث تناولنا **الحرية الانسانية عند المعتزلة** مستعرضين اراءهم ونصوصهم حول الموضوع من وجهة نظر تحليلية و نقدية وعلمية.

منهج الدراسة:

لقد استخدمنا في هذه الدراسة المنهج التحليلي النقدي المقارن. حيث قمنا بعرض النصوص الخاصة بهذه المشكلة ثم حللنا معانيها بين التأييد والنقد واحيانا نلجأ الى مقارنتها مع نصوص اخرى بغية الوصول الى نتيجة منطقية وعلمية.

تمهيد:-

في جميع الأمكنة والأزمنة نجد أنّ مشكلة الحريّة والجبر هي المشكلة الأساسيّة التي تسربت إلى فكر وفلسفة أكثر أفراد الإنسان ككائن مفكر وعاقل ومكلف في أداء مهمة خاصة به، حيث تدور الأسئلة حول هذا السؤال: هل أنّ الإنسان حرة الإرادة في الاختيار، أو أنّه مسيّر من قبل الله سبحانه وتعالى في نظر المؤمنين، أو انه مسلوب الحرية من خلال ارتباطه بالعالم المادي في نظر الماديين؟

ضرورة هذه الدراسة نابعة من كونها تطرح المشكلة التي طرحها اسلافنا من فلاسفة ومتكلمين ولاهوتيين من قبل ولكنها تختلف في الصورة المعاصرة تحت منهج التحليل والنقد بغية الوصول الى نتائج متواضعة بعض الشي عما توصّل اليه من سبقنا في هذا المجال، ونحن حاولنا في هذه الدراسة ان نتطرق الى اراء اخرى غير تابعة لفرقة المعتزلة ولاسيما اراء اهل السنة والجماعة حتى تكون الصورة واضحة ويكون المعنى وافيا لشفاء الغليل.

اذن الاهتمام بمسألة الحرية البشرية ضرورية جدا وهي قديمة منذ أن وجد الإنسان وقد تمت الاشارة اليه في الكتب(موسى) والصحف(ابراهيم) المقدسة قبل الكتاب المقدس والقران الكريم- فالإنسان عاقل؛ فلذلك قادر على

الاختيار وهذا يعني غياب القهر (الجبر) ولا يمكن لنا ان نفصل بين ثلاثة حدود وهي : (الحرية – العقل – الاختيار) وان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على صورة الحريّة؛ لأنّه مسؤول عن اختيار الطريق في الحياة[1] وهنا لا يمكن لنا ان ننكر حقيقة القول بحرية الإنسان في الاختيار بعد ان انعمه الله عليه سبحانه وتعالى وفضّله على الاخرين بالعقل وهناك آيات قرآنية كثيرة تؤكد لنا هذه الحقيقة كما في قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } ﴿الإنسان:٣﴾ وفي قوله تعالى : {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} ﴿البلد : ١٠﴾ ، فكلمة السبيل والنجدين تشيران الى أنّ المقصود منهما هو الطريق و قد انعم الله على الإنسان بحرية الاختيار بين الطريقين (طريق الخير و طريق الشر) ولاسيّما بعد ارسال الرسل بالحق ليبين للناس حقيقة الدين وحقيقة الطرق المؤدية الى النجاة والى الهلاك، وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده : « كل انسان سليم العقل والحواس يشهد بأنّه موجود ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد انه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه، ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل »[2]. ومن تحليلنا لهذا النص نجد ان الشيخ محمد عبده يؤكد على حرية الإنسان في الاختيار وارادته وقدرته على التنفيذ(تصدير الافعال) لأنّه حاصل على صفة الوجود وبالفعل سوف يكون مسؤولا بقدر ما يصدر منه من افعال. وقد قارن كل ذلك بوجود العقل كالة او اداة يستعين به الانسان ليمييز بين ماهو صحيح وماهو ليس بصحيح. إذن المسألة يتعلق باللطف الالهي عندما منح الانسان ملكة العقل من دون الكائنات الاخرى وهذا دليل قاطع لوجود الارادة الحرة عند الانسان إذا ما تعامل مع الاحداث تعاملا عقلانيا.

المبحث الأول

الجذور الأوليّة لفكرة حرية الإنسان

تعد قضية الحرية والاختيار من اهم القضايا التي اتسم به تاريخ الفكر الفلسفي والكلامي في العصور الوسطى خصوصا بعد انتشار الدين الاسلامي والتقائه بالأديان والفلسفات الاخرى ولاسيما الدين اليهودي والمسيحي والفلسفة اليونانية، مما شغلت بال كثير من مفكري ومتكلمي الاسلام حيث تناولها كثير من الفرق والمذاهب الاسلامية بدءا بمدرسة الراي لابي حنيفة النعمان وفرقة المعتزلة وبعض الشخصيات الاخرى من امثال جعد بن درهم، وجهم بن صفوان وغيلان الدمشقي بغية الوصول الى ايجاد حلول مناسبة تتماشى مع الظروف السياسية والاجتماعية في ذلك الوقت بين القائل بحرية الإرادة عند الإنسان وبين القائل بحرية الافعال الإنسانية. وفي الحقيقة نجد ان البحث في هذه المسألة هو في الواقع نوع من الجدل العقيم اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة ايماننا بالقدر خيره وشره من عند الله ومن ثم نفهم ما المقصود بمعنى القضاء والقدر في العقيدة الاسلامية السمحاء؟ والا نقع في خضم من الجدل العقيم لا نخرج منها بثمرة مفيدة. وربما يكون قد توصلنا الى الدواء الشافي والكافي لغليلنا من صميم العقيدة الاسلامية القائمة في جوهرها على الاتصال الروحي والعقلي والجسدي للإنسان بربه في العبادات والمعاملات، والكل يعلم ان طرح الاسئلة الخاصة بهذا الموضوع لم تكن موجودة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم الا بعد وفاته لأنّه هو مصدر التشريع والأجوبة، إذن فما هو اللغز الذي يكمن من وراء اثارة هذه المشكلة ؟

---

(1) ينظر: انين جلسون، روح الفلسفة في العصر الوسيط، ترجمة: أمام عبد الفتاح أمام، ط٢، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٨٣.

(2) ينظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، دار احياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص٧٤.

اغلب المصادر ان لم يكن جميعها تؤكد ان مشكلة الحرية والقدر في حقيقتها سياسية اكثر من ان يكون دينية ونشأت اول الامر في البصرة الذي كانت ثغر الدولة الاسلامية وموفد الاجناس الذين يأتون اليها من كل صوب وكان بنو امية يغدقون على رجالهم اموالا طائلة ولذلك عاشوا عيشة الترف و المجون لذلك وتحللوا من كثير من التكاليف الدينية، وشاعت بينهم فكرة القدر الالهي التي لا مردّ لها، وما دامت إرادة الله هي النافذة فليسلم الإنسان نفسه لمشيئة الله طالما ان القدر لا محيص عنه[٣]، كما هو واضح وصريح ان مشكلة الحريّة والقدر نابعة من صميم الحضارة الاسلامية لأسباب داخلية تتعلق بالتطور الديني والسياسي للإسلام في تلك الفترة من تاريخه، والان نستعرض بعض المواقف في صور قصيرة لهذه المشكلة لدى بعض الفرق الاسلامية في ذلك الوقت.

من الفرق القائلة بأنّ الإنسان في اعماله خالق وصانع لأفعاله مثل (القدرية)، والقائل بأنّ الإنسان في اعماله مجبر لا حرية له بل هي (افعاله) مخلوقة له من الله سبحانه وتعالى مثل(الجبرية)، وإنّ المعتزلة حاولوا ايجاد حل مناسب لهذه المشكلة الكلامية، القائلين بأنّ الإنسان خالق لأفعاله ومسؤول عنه في نفس الوقت شريطة أن تكون له القدرة والاستطاعة في أداء الفعل، وفي هذ الاثناء ظهرت فرقة الاشاعرة القائلين بأنّ الافعال الإنسانية مخلوقة من الله ومكتسبة من الإنسان... و حاولنا ان نستعرض موقف المعتزلة بشي من التفصيل من مشكلة الحرية الإنسانية والفعل الإنساني.

الا ان مسألة حرية الإنسان وجدت في زمن الأمام علي رضي الله عنه عندما سأله شيخ عن القضاء والقدر فأجابه الأمام في تفسيره للقضاء والقدر: « ان الله امر عباده تخييرا ونهاهم تحذيرا، وكلف يسيرا واعطى على القليل كثيرا ولم يصنع حكمها»، واجاب الأمام أيضا مؤكدا بأنّ الإنسان له الحرية في عمله قائلا: « ولعلك تظن قضاء واجبا وقدرا حتما، ولو كان ذلك، لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ».[٤]

ومن هنا تظهر بوضوح حرية الإنسان في أداء الاعمال الخيرة الذي أمر الله بها؛ لان الله لا يأمر بالشر لأنّه ليس شريرا، بل يحب الخير لعباده فمن يعمل خيرا فيجازي الله على خيره ، اما فيما يتعلق بالنواهي فهو خاصة بالأعمال الشريرة التي نهى الله عنها لأنّه لا يريد لعباده الشر فيجازيه بالعقاب لذا نجده يحذر عباده بأنّ يبتعدوا عن الاعمال المشينة بالخلق، فمن يعمل بعد ذلك سوف يتحمل مسؤوليات عمله فاذا كان خيرا يجازى بالثواب وان كان شرا يجازى بالعقاب كمن يقول لشخص: لا تذهب من هذا الطريق لان هناك حفرة عميقة سوف تتعثر فاذا ما ذهب هذا الشخص في ذلك الطريق لا يتحمل القائل ذنبه اذا وقع الشخص في الحفرة، بل هو يتحمل نتيجة عمله.

فبعدما سمع الشيخ الجواب من الأمام أنشد بحقه ابيات شعرية يصف فيها الأمام قائلا:

انت الأمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
اوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك بالإحسان احسانا.[٥]

والذي ينبغي لنا ان نشير الى رأيه من علماء اهل السنة والجماعة هو ابن القيم الجوزية حيث يقول : « ان رحمة الله تمنعه من اهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم ، وان الله في يوم الدين يدين عباده بأعمالهم ، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات . وما كان الله ليعذب احدا قبل اقامة الحجة

(٣) ينظر: احمد خواجة، الله والإنسان في الفكر العربي والاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٨٥.

(٤) ينظر: عبد الستار الراوي، ثورة العقل، دراسة في فكر معتزلة بغداد، دار الرشيد للنشر،١٩٨٢،ص٣٢.

(٥) ينظر: عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، مطبعة الارشاد- بغداد ،ط١،١٩٦٧،ص٢٥١-٢٥٤.

عليه، والحجة انما قامت برسله وكتبه ، وبهم استحق الثواب والعقاب »[٦] . ومن هنا نرى بوضوح ان معاصي الإنسان هو فاعله على الحقيقة واعماله الخيرة ناتجة عنه ايضا وهو يتحمل جزاء عمله من الثواب والعقاب ولاسيما بعد ان اتسعت مداركه ووافقت في معرفة خالقه ومبادى دينه من الطريق الذي يسلكها في الدنيا.

يقول علي سامي النشار في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) عمن تكلم في مذهب الإرادة الحرة عند الإنسان: « كان معبد بن خالد الجهني وهو من تلامذة أبي ذر الغفاري انتقل ومعه عطا بن يسار الى البصرة قاصدا مجلس الحسن البصري قائلا: " يا ابا سعيد : هؤلاء الملوك ويقصد بهم (ملوك بني امية) يسفكون دماء المسلمين ويأخذون اموالهم- ويقولون، انما تجري اعمالنا على قدر الله، فأجابهم الحسن البصري بقوله: (كذب اعداء الله) ، و من خلال لقاء معبد بالحسن البصري نرى حقيقة دعوة معبد في انكاره على ملوك بني امية مظالمهم باسم العدل الالهي؛ لان الله سبحانه وتعالى كما ذكرنا في اعلاه انه لا يأمر بالظلم، وإنما الظلم من الفعل الإنساني النابع من صميم حريته في القيام بالفعل، وظلّ (معبد) يناهض ملوك بني امية بالخروج عليهم حتى اودع في سجن الحجاج مقيدا فلما رآه الحجاج قال له : " يا معبد كيف ترى قسم الله لك ؟ فقال: يا حجاج ، خل بيني وبين قسم الله ، فان لم يكن لي قسم الا هذا رضيت به، فقال له : يا معبد اليس قيدك بقضاء الله ؟ فقال: يا حجاج ما رأيت احدا قيدني غيرك فاطلق يدي. فان ادخله قضاء الله رضيت به»[٧]، ومن خلال تحليلنا للنص الاول الذي عرضه (د. سامي النشار) نفهم ان اول القائلين بمذهب الحرية او المدافعين عن فكرة حرية الإرادة الإنسانية هو الأمام (الحسن البصري) ، ويشير الى هذا ايضا (د. احمد خواجة) في كتابه (الله والإنسان في الفكر العربي والاسلامي) حين بعث (الحسن البصري) رسالة كتبها الى (عبد الملك بن مروان) يؤكد فيها« ان الله لم يخلق الناس للأمير ثم يعول بينه وبينهم ، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد » في هذه الرسالة يظهر بوضوح موقف (الحسن البصري) الا ان (الشهرستاني) ينفي ان يكون هذه الرسالة المبعوثة الى (عبد الملك بن مروان) من الإمام (الحسن البصري) لأنه كان من السلف الصالح الذي لم يخالفهم في ان القدر خيره وشره من الله تعالى بل نسب الرسالة الى واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة[٨]، ومن المدافعين ايضا عن مذهب الحرية الإنسانية (غيلان الدمشقي) القائل: ان الله ليس مصدر الشرور في هذا العالم ويبين موقفه هذا من خلال رسالة بعثه الى الخليفة الأموي (عمر بن عبد العزيز) يدعوه الى الايمان بالمذهب القدري حيث يقول : « طفأ امر السنة وظهرت البدعة. أخيف العالم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الامة بالأمام ، فانظر أي الإمامين أنت ... هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة ، او يعذبهم على الطاعة ، ام هل وجدت عادلا يحمل الناس على الظلم والتظالم. وهل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب او التكاذب بينهم ، كفى بيان هذا بيانا او بالعمى عنه عمى »[٩] ويعده (طاش كبرى زاده) من ائمة المعتزلة ويجعله من مدرسة الحسن البصري واصحابه[١٠] ، هذا فيما يتعلق بأصحاب مذهب الحرية والقائلين بأنّ الإنسان العاقل العارف والمدرك لحقيقة الموضوعات يكون حرا وذا إرادة ومختارة في افعاله ومسؤولا في النهاية عن مصيره في يوم الدين. الا اننا نجد من جهة اخرى من يقول بأنّ الإنسان مجبر ومسير في افعاله وهؤلاء هم من

(٦) ينظر: ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين، اعداد: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ،ص١١ - ١٢ .

(٧) ينظر: احمد خواجة، الله والإنسان....، المصدر السابق، ص٨٧.

(٨) ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: ابو محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ، ج١، ص٤٧.

(٩) ينظر: القاضي عبد الجبار، طبقات المعتزلة، ص ٢٣٠ – ٢٣١، نقلا عن احمد خواجة، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(١٠) ينظر: علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف بمصر، ط٧، ١٩٧٧، ج١، ص ٣٣١.

اصحاب مذهب الجبرية في الفكر الاسلامي، أي ان الإنسان ليس حرا بل ان جميع افعاله مقدر من الله وهو لا حول ولا قوة له أمام هذه القدرة الالهية المطلقة في الكون، واصحاب مذهب الجبرية يرون ان إرادة الإنسان العاقل عاجزة عن توجيه مجرى الحوادث، وان كل ما يحدث للإنسان قد قدر عليه ازلا، فهو مسير ولا مخير[١١]، ويسمون ايضا بالجهمية نسبة الى (جهم بن صفوان) القائل : " ان الله لم يخلق شيئا بسبب ولا جعل في الاسباب قوى وطبائع تؤثر، فليس في النار قوة الاحراق ولا في السم قوة الاهلاك، بل ان الله سبحانه يحدث هذه الاثار عند ملاقاة هذه الاجسام لا بها . ولا الطاعات والتوحيد سببا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببا لدخول النار، بل يدخل هؤلاء الجنة بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة اصلا، ويدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة [١٢]، ومنهم من يرى ايضا ان في سبق العلم والحكم بالقدر استحالة التغير في المصير فيقولون ان سبق العلم والحكم بالسعادة والشقاوة لا يتغير البتة، فسواء علينا الفعل والترك فان سبق العلم والحكم بالشقاوة فنحن اشقياء، عملنا او لم نعمل، وان سبق العلم والحكم بالسعادة فنحن سعداء عملنا او لم نعمل [١٣]، ونفهم من خلال تحليلنا لأقوال الجبريين ان الناس جميعا قد قضي عليهم امرهم في كتاب عند خالق مقتدر فلا مبدل لحكمه وعلمه فمن كتب عليه الشقاء فهو شقي عمل أم لم يعمل. وكذا هي الحال بالنسبة للسعيد الا اننا نجد في جوهر العقيدة الاسلامية السمحاء خطابا يخالف بكل صراحة ووضوح موقف هؤلاء الجبريين ومن لف حولهم من المفكرين بل يكون موقفهم هذا موقفا هزيلا لا يقاوم نسيم الهواء في يوم مشمس من ايام الربيع، فمثلا نجد في شرح معنى احد اسماء الله الحسنى (الرحمن): انه المزيح للعلل، وذلك لما اراد الله من الجن والانس ان يعبدوه فهو يعني : لما اراد ان يأمر من شاء منهم بعبادته – عرفهم وجوه العبادات وبين لهم حدودها وشروطها وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح فخاطبهم وكلفهم وبشّرهم وانذرهم وامهلهم وحمّلهم دون ما تتسع له بينة فصارت العلل مزاحة وحجج العصاة والمقصرين متقطعة، اما في شرح معنى (الرحيم) : يقال : انه المثيب على العمل فلا يضيع للعامل عملا ولا يهدر للساعي سعيا [١٤]، ولكي نكون على بينة اكثر من موقفنا ضد من يقول ان الله قد حدد مصير كل انسان دون ان يتغير، فهذه المسألة تعد من المسائل الغيبية الذي لا طاقة للعقل الإنساني ان يسبح في عمقها بسبب قدرتها المحدودة لأننا لا نعلم شيئا عن العلم الالهي والحكمة الالهية في مخلوقاته وإنما علينا ان نعمل ونتوب ونستغفر الله يوميا على ما يتبادر منا من افعال حتى نكون من الفائزين بمغفرته[١٥]، وهناك احاديث كثيرة تؤكد لنا ما نقوله فهذا هو قول الرسول محمد صلى الله عليه و سلم: « ان الله عز وجل يقول : يا ابن ادم كلكم مذنب الا من عافيته ، فاستغفر وني اغفر لكم ، ومن علم اني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له بقدرتي ولا ابالي ، وكلكم ضال الا من هديته فاسألوني الهدى اهدكم ...»[١٦] وفي حديث اخر نجد ان الرسول صلى الله عليه و سلم يقول: « قال الله عز وجل : من علم منكم اني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت

(١١) ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بالألفاظ العربية والفرنسية و الإنكليزية واللاتينية، ج١، ط١، منشورات ذو القربى، قم، ص ٣٨٨.

(١٢) ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، المصدر السابق، ص ٦٢٠ – ٦٢١.

(١٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦٢١.

(١٤) ينظر: - عادل بن سعد وعمرو بن محروس، موسوعة الاسماء والصفات، مجموعة من ائمة الاعلام، ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٦، ج١، ص ٩٣.

(١٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ٤٨٢.

(١٦) ينظر: جمال محمد علي الشقيري، الأحاديث القدسية، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ج١، ص٢٦٦.

له ولا ابالي ما لم يشرك بي شيئا»[١٧]، في هذه الاحاديث والشروحات السابقة لمعاني (الرحمن والرحيم) نجد الصورة واضحة للعيان ولاسيما أنّ خطاب الله عز وجل كان الى بني ادم كافة ولم يكن الى المؤمنين او المسلمين بل اختار بني ادم وهذا دليل كاف على لطفه ورحمته لنا اجمعين فكل من دعا ربه سواء كان ابيضا او اسودا مؤمنا او عاصيا بالمغفرة غفر له وهداه، ويكون قوله تعالى على لسان رسوله اهم من كل ما ذكر (غفرت له ولا ابالي ما لم يشرك بي شيئا) أي ان عدم الشرك بالله هو اساس الايمان والعقيدة في الاسلام فمن لم يشرك بالله يغفر له ذنوبه وهذا هو معنى (القضاء) أي ان يقضي كيفما يشاء في حق الناس يوم القيامة ولكن الاساس في كل هذا هو عدم الشرك وهذا يخالف ما يقولونه من ان التوحيد ليس سببا لدخول الجنة والنجاة من النار.

اذن لا يمكن لإنسان واع مدرك فاهم حساس عاقل ان ينكر ان قدرة الله فوق قدرتنا ولها وحدها السلطان الأعلى في اتمام مراد العبد بإزالة الموانع او تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته، والإنسان يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة اما لسعادته او شقاوته حتى يختلف عن بقية الحيوانات لأنّه فضّله الله بالفكر والعقل، أي ان يكون مفكرا مختارا لما يريده ويعمله على مقتضى فكره وعلمه. ولو سلب شيء منها لكان اما ملكا او حيوانا، فهبة الوجود للإنسان لا شيء فيها من القهر على العمل، وإنّ علم الله محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وإن عمل الخير الذي يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وان عمل الشر فيعاقب عليه عقاب الشر، والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار[١٨]، ومن هنا نجد أنّ القدرة تعني العلم، أي أنّ الله قدّر الاشياء بعلمه المسبق الأزلي وبهذا فهو عالم في كلّ لحظة ممّا يفعل الإنسان سواء كان خيرا ام شرا، ولا يخفى على الله شيء في هذا الكون بل كلّ ما يحدث من الحوادث صغيرا كان أم كبيرا فهو في علم الله موجود، ولكن هذا العلم لا يعني أنّ ما يحدث من أحداث هو من الله مباشرة بل هو يعلم بحدوثه والعلم بحدوث الشيء يختلف عن سبب الحدوث .

المبحث الثاني

الإنسان بين حرية الإرادة والقضاء والقدر

لا يمكن لنا ان ننكر الحقيقة التاريخية التي تقول ان حرية الإنسان في الاختيار قديمة بقدم الإنسان ذاته، فأول ما وجد الإنسان نفسه وهو في محيط مليء بالظواهر والحوادث كان عليه ان يفسر ويحلل ويفكر بما يجري حوله ويختار من بين تفسيراته الاحسن والافضل منها بما فيه منفعته الإنسانية فبدأ من هذه اللحظة عد الإنسان صاحب حريته في الاختيار بما يقرره عقله وهو مسؤول عن اختياره.

الا اننا نواجه مشكلة قد اثارها متكلمو الاسلام وفلاسفتها وهذه المشكلة تتعلق بمسألة (القضاء والقدر) وموقف الإنسان منها، فهذه المسألة لم تقتصر فقط على الفكر الاسلامي وإنّما تعرّض لها كلّ الاديان ، وقد واجهها العقل المسيحي (الاوروبي) بطريقة حاسمة يلخصها لنا (مونتجمري وات)★ على النحو الاتي: « استطاعة الله سبحانه، واستطاعة الإنسان تبوآن كحقيقتين متعارضتين او متواجهتين او حتى متكاملتين ولا يمكن للإنسان في هذه المرحلة من تطوره الفكري ان يوفق بينهما ، لكن لابد ان يعتقد في صحتهما أي لابد ان يؤمن بأنّ الله على كل

([١٧]) ينظر: أبو بكر بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، (المتوفى: ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ه ،ج٦، ص٧٢.

([١٨]) ينظر: محمد عبده، رسالة التوحيد، المصدر السابق، ص ٧٦ – ٧٧.

شيء قدير، وان يؤمن ايضا بأنّ الإنسان مسؤول عن تصرفاته» [١٩]، ومن هنا نجد ان على الإنسان ان يعتقد بالمقدمة المنطقية الواردة في هذه الاية (ان الله على كل شيء قدير) ولا يشك فيه قيد انملة ونحن نعلم ان من اركان الايمان ان يؤمن الإنسان بالقدر خيره وشره ، ولكن المهم ان نعرف ماهية القدر، فماهي معنى القدر ؟ صحيح لا يمكن لنا ان ننكر ان الله فعّال لما يريد ولا يسأل عما يفعل، لان الله سبحانه وتعالى مالك الملك، يتصرف فيه بمقتضى حكمته ومشيئته، وكل تصرف منه انما يجري وفق مشيئته التي اودعها في الكون وقوانينه المضطربة في الوجود كما في قوله تعالى : { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} ﴿الرعد : ٨﴾، وهو سبحانه لا يجب عليه شيء، ولا يتصرف من اجل احد . [٢٠]. وهناك آيات قرآنية كثيرة تتحدث عن القدر كما في قوله تعالى : {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } ﴿الحجر : ٢١﴾، وقوله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ﴿القمر : ٤٩﴾، والمقصود من معنى القدر الوارد في هذه الآيات بحسب ظاهر النص الصريح هو التأكيد على وجود النظام المحكم الذي اودعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط الله بها الاسباب بمسبباتها.

وقد عرف لنا الأمام النووي معنى القدر في قوله :« ان الله تبارك وتعالى قدر الاشياء في القدم ، وعلم سبحانه انها تقع في اوقات معلومة عنده، سبحانه وتعالى- وعلى صفات مخصوصة فهي تقع حسب ما قدرها »[٢١]، الا اننا نجد في ايامنا هذا مفهوما مغايرا لمعنى القضاء والقدر لدى اكثر الناس بمن فيهم الطبقة المثقفة على اساس الجبر، أي كل ما يصدر من الإنسان من افعال ينسبونه الى قدر من عند الله، قدر مكتوب منذ الازل فلا يغير من شيء الى الابد، ولكي نزيل هذا اللبس في الفهم لابد لنا من ان نورد الادلة الدامغة والقاطعة نقطع به دابر الذين يقولون ان افعالنا من عند الله. وهناك كثير من الروايات والاحاديث بهذا الخصوص ولاسيما روايات مؤكدة من الجيل الاول لعصر النبي، منها قول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حق شخص قد سرق وادعى ان سرقته كانت بقضاء الله ، فقال له عمر لمَ سرقت؟ فقال السارق: قضى الله عليه فأمر به، فقطعت يده وضربه اسواطا، فقيل له في ذلك فقال: القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله، وفي هذا تصريح من عمر بنفي الجبر، وايضا في قول الذين حاصروا (عثمان بن عفان) رضي الله عنه حين رموه : الله يرميك، قال: كذبتم لو رماني الله ما اخطأني، وهذا ايضا يقتضي انكار الجبر، ايضا نجد في قول (عبدالله بن عمر) رضي الله عنه حين قال له بعض الناس: يا ابا عبدالرحمن ان اقواما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون: كان في علم الله ولم نجد بدا منه، فغضب ثم قال: سبحان الله العظيم قد كان ذلك في علمه انهم يفعلونها ولم يحملهم علم الله على فعلها. ويقول ايضا: حدثني ابي انه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي اظلتكم والارض التي اقلتكم فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والارض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله وكما لا تحملكم السماء والارض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله عليها»، ثم قال (ابن عمر) لعبد يعمل المعصية ثم يقر بذنبه على نفسه احب الي من عبد يصوم النهار ويقوم الليل ويقول ان الله تعالى يفعل

- وليام مونتغمري واط (١٤ مارس ١٩٠٩ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٦) كان مستشرقا بريطانيا عمل أستاذا للغة العربية و الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي بجامعة إدنبرة في أدنبرة، إسكتلندا .ومن أشهر كتبه كتاب محمد في مكة ١٩٥٣ وكتاب محمد في المدينة ١٩٥٦.

([١٩]) ينظر: محمد ابراهيم الفيومي، المعتزلة تكوين.....ص ٤٣٩.

([٢٠]) ينظر: السيد سابق، العقائد الاسلامية، دار الفكر، بيروت،ط١٩٨٣،٣، ص ٩٣.

([٢١]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٩٥.

الخطيئة فيه.[٢٢] فهذا ان دل على شيء فانه يدل على حرية الإنسان في عمله، وبهذه الصورة تتبين لنا حرية الإنسان في افعاله أمام قضاء الله وقدره اذا ما ترجمنا معنى القدر بالعلم الالهي، لذا وجب علينا ان نؤمن بالقدر الذي ليس فيه معنى الاجبار ، حيث نجد ان الخطابي يقول : « قد يحسب كثير من الناس ان معنى القضاء والقدر اجبار الله سبحانه وتعالى العبد على ما قدره وقضاه... وليس الامر كما يتوهمون، وإنما معناه الاخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد، وصدورها عن تقدير منه تعالى، وخلقه لها. خيرها وشرها . والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر ». وعلم الله سبحانه بما سيقع، ووقوعه حسب هذا العلم لا تأثير له في إرادة العبد، فان العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير، فمثلا علم الإنسان بأنّ ابنه ذكي مقبل على دروسه ومستوعب لها حفظا وفهما ليس له تأثير في نجاحه [٢٣]، ونحن نعلم ان الله سبحانه وتعالى طيب لا يحب الا الفعل الحسن والخير من العبد ولا يأمرهم على الفعل القبيح لأنه يتعارض مع عدله وحكمته ولطفه ولأنه جميل يحب الجمال فكيف نقول ان الله يأمر عباده بما لا يحبه هو[٢٤]، ودليلنا في هذا هو حديث ابي هريرة عن الرسول صلى الله عليه و سلم « يا ايها الناس، ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله امر المؤمنين بما امر به المرسلين» [٢٥] ومعنى هذا الحديث هو ان الله لا يقبل من احد الا الفعل الطيب والحسن والخير من عباده وان الله لا يحب الشر من عباده ولاسيما بعد ان بين لهم الصراط المستقيم في الحياة عن طريق رسله فلا نجد بعد هذا عذرا من احد بأنه مجبر في افعاله في حال بيان العلم للمتعلم وارشاده الى المصادر ومنابع العلم فان رسب فانه منه او من الشيطان وهذا هو اختيار ما كان يريده وكذا الحال بالنسبة لأوامر الله عندما يأمر الناس بعبادته لا يضع منك مجبرا مسلوب الإرادة لأنه فضلك على باقي مخلوقاته بالعقل المدرك للحسن والقبح من الافعال، وبين العلامة ابن القيم الجوزية في محاولة منه لتوضيح معنى القدر بقوله : « اذا عرفت معنى هذه الآية» {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ﴿التوبة : ١١٥﴾ عرفت سر القدر وزالت عنك شكوك كثيرة وعلمت حكمة الله في اضلال من يضله من عباده، وهناك آيات كثيرة يصرح بهذا كقوله تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} ﴿الصف : ٥﴾: فهذا الاضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به [٢٦]، وكذلك نجد في قول عمر بن الخطاب لعبيدة بن الجراح عندما اقترب من ابواب مصر وسمع بأنّ فيها مرض الطاعون قرر عدم دخوله الى مصر فقال له ابو عبيدة أ تفرُّ من قدر الله ؟ اجابه عمر (أفرّ من قدر الله الى قدر الله) [٢٧] أي بأنّ هذا قدر وذاك قدر، اذن الحكمة من ايماننا بالقدر اذا ما ترجمناه الى نظم وسنن وقوانين موجودة في الكون والطبيعة فهي علة هذه السنن وادراك قوانينها والعمل وفق ما يقتضيها في البناء والتعمير والحفاظ على انفسنا، والايمان بالقدر يرى الإنسان ان كل شيء في الوجود انما يسير وفق حكمة عليا، فاذا أحس الإنسان بالضر فانه لا يجزع ، واذا صادف التوفيق والنجاح فانه لا يفرح ولا يبطر، واذا رأى الإنسان من الجزع عند الاخفاق

([٢٢]) ينظر: احمد بن يحي بن المرتضى، طبقات المعتزلة ، دار المنتظر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨، ص ٨-١٢.

([٢٣]) ينظر: السيد سابق، العقائد الاسلامية، المصدر السابق، ص ٩٦.

([٢٤]) ينظر: ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق، هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر، ط١، بدون تاريخ، ص١٠.

([٢٥]) ينظر: علاء الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (المتوفى: ٩٧٥هـ) تحقيق: بكري حياني - صفوة، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م،ج٢، ص٨١.

([٢٦]) ينظر: ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، المصدر السابق، ص ٢٥.

([٢٧]) ينظر: المصدر نفسه، ص ٦٢٢.

والفشل، ومن الفرح والبطر عند النجاح- كان انسانا سويا متزنا، بالغا منتهى السمو والرفعة[٢٨]، وهذا هو معنى قوله تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ﴿الحديد : ٢٢﴾.

ولكن هناك مشكلة اخرى اكثر عمقا تتعلق بموضوعنا الا وهي (السعادة والشقاوة)، فكما هو معلوم للجميع ان الإنسان في طور التكوين داخل الرحم يأتيه ملك مخصوص يكتب له ثلاثة اشياء من بينها هل يكون سعيدا أو شقيًا في الدنيا؟ فمن كان سعيدا فيبقى على سعادته دون ان يتبدل ومن كان شقيا يبقى على شقاوته أيضا دون ان يتبدل، وهذا بحد ذاته يتعارض مع ما قلناه الى الان فإما ان يكون كل ما قلناه ليس صحيحا واما ان يكون هناك سوء الفهم لهذه المشكلة. الا اننا نجد في جوهر الاسلام الحل الامثل لهذه المشكلة وهذا ما نراه في آيات قرآنية واقوال الصحابة والعلماء بما ينفي القول بأنّ سعادة الإنسان وشقاوته في الدنيا غير مرتبطتين بالأفعال الإنسانية والمؤثرات الخارجية ، لأنّ الاسلام منذ البداية قرر ان الإنسان مخلوق مزودا بقوى وملكات واستعدادات، وهذه القوى يمكن ان توجه الى الخير كما يمكن ان توجه الى الشر، فهي ليست خيرا محضا ولا شرا محضا، وان كانت إرادة الخير في البعض اقوى، واراده الشر في البعض الاخر اقوى، وبينهما فرق لا يعلمه الا الله ، وهناك آية قرآنية تدل على هذا الكلام كما في قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } ﴿الشمس : ٧ - ٨﴾، فهذه الآية تدل على أنّ الإنسان منذ ان خلقه الله قد غرز في داخله ميولا واستعدادات تتأثر بقوى اخرى خارجية متمثلة بالبيئة (السياسية – الاعلامية – التربوية) مع منحه قدرة ادراكية قوية تميز به الخير عن الشر، ومن هنا ترك للإنسان حرية الاختيار بين الطرق في الحياة.

اذن الإنسان حر في افعاله ويكون سعيدا او شقيا حسب افعاله وفي هذا نجد ان (ابي بن مالك) يقول: « السعيد من سعد بعمله والشقي من شقي بعمله »[٢٩]، فسعادة الإنسان وشقاوته مرهونتان بما يفعله في الدنيا من اعماله خيرا كان ام شرا وهنا نستطيع ان نقول ان الله يعلم بأنّ هذا الإنسان يكون سعيدا ام شقيا ولكن علمه ليس سببا في سعادتهم ام شقاوتهم .

وهناك آيات اخرى ظاهرها تفيد الجبر كما في قوله تعالى : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } ﴿الإنسان : ٣٠﴾ ، وقوله تعالى: { وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } ﴿المدثر : ٥٦﴾ ، { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } ﴿الأنعام : ١١٢﴾، وقوله تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } ﴿الأنعام : ١١٢﴾، وهناك آيات اخرى كثيرة، فدلّت هذه الآيات على ان ما يحدث من احداث هي في نطاق المشيئة الالهية، ولكن يجب علينا ان لا نفهم كما هو ظاهر في نصوص هذه الآيات ان الإنسان مسلوب المشيئة والإرادة في العمل، لانّ الرسول صلى الله عليه و سلم حينما دخل الى بيت علي وجد فاطمة وعليّا فقال لهما الا تصلون ؟ فقال علي يا رسول الله: انما انفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله عندما سمع ذلك وهو مدبر يضرب فخذه قائلا[٣٠]: {وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا } ﴿الكهف : ٥٤﴾ اذن هكذا وصلنا الى ما كنا نبتغيه من بحثنا هذا بأنّ الإنسان حر فيما يفعله وهو المسؤول عن كل ما يصدر عنه.

---

(٢٨) ينظر: السيد سابق، العقائد الاسلامية، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٢٩) ينظر: احمد بن يحي بن المرتضى، طبقات المعتزلة، المصدر السابق، ص ١٣.

(٣٠) ينظر: موسوعة الاسماء والصفات، المصدر السابق، ص ٤٩٧.

المبحث الثالث

الحرية الإنسانية عند المعتزلة

بعدما بينا الجذور التاريخية لمشكلة الحرية الإنسانية في المبحث الاول نحاول قدر الامكان ان نوضح موقف رجال المعتزلة من نفس المشكلة التي كانت قائمة على الساحة الاسلامية والتي كانت تمثلها فرقتان اسلاميتان هما (القدرية والجبرية)، وهنا نجد موقف المعتزلة بأنهم اتفقوا على ان افعال الإنسان غير مخلوقة من الله. وان من يقول: ان الله سبحانه وتعالى هو خالقها ومحدثها، فقد عظم خطؤه ، وذلك لان هذه الافعال متعلقة بالإنسان، فلا يصح ان تتعلق بالذات الالهية لأنه يستحيل ان يكون فعل واحد مفعولا لفاعلين ومقدورا لقادرين[٣١]، ومن هنا يظهر للمعتزلة مذهب جديد القائل: بحرية إرادة الإنسان لكي يكون الإنسان مسؤولا عن افعاله ومناطا للتكليف حتى ينفون صدور أي ظلم عن الله سبحانه وتعالى من خلال قولهم بالعدل الذي هو من اهم صفات الفعل الالهي وربطها بالفعل الإنساني[٣٢] لذا نجد منذ تلك اللحظة اطلق على المعتزلة لقب (اهل العدل) لأنهم يقولون بأنّ الله لا يصدر عنه شر، وانه يثيب الإنسان ويعاقبه بحسب عمله[٣٣]، ومن هنا يظهر بوضوح موقف المعتزلة من الله بأنه ليس بظلام للعبيد بل انه عادل حكيم عليم وان الإنسان لديه القدرة والحرية في صنع افعاله والمباشرة به واتخاذ قراراته، ومن عدل الله وحكمته ان يثيب المحسن ويعاقب المسيء، وان الخير والشر هما نتيجتان من نتائج الفعل الإنساني او ثمرة اعمالهم في الدنيا لان الرجل الذي يتبع هواه وشهواته فهو عبد لشهواته كما يقول (بوذا)، وان الإنسان الذي يملك زمام نفسه ويستطيع العروج بها الى اوج الكمال ليمنحها مركزا مرموقا، او الانخفاض ليهوى ويصبح ليس شيطانا فحسب بل معلما للشيطان وهذا يذكرنا بقول الشاعر:

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى بي الأمر حتى صار ابليس من جندي[٣٤].

ويورد المعتزلة ادلة سمعية وعقلية لإثبات موقفهم من حرية الإنسان في افعاله، فمن ادلتهم السمعية استنادهم الى آيات قرآنية كثيرة يتعلق بحرية الإنسان مثل: قوله تعالى: { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } ﴿الكهف : ٢٩﴾، وقوله تعالى: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} ﴿فصلت : ٤٠﴾ هاتان الآيتان تقران بحرية إرادة الإنسان[٣٥]، كما استند المعتزلة الى آيات اخرى فيها ذم الكفر والمعاصي ومدح الايمان الصالح والعمل الصالح مثل قوله تعالى: { وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } ﴿النور: ٥٥﴾)، وآيات اخرى كثيرة تشير الى طلب العفو الذي يتضمن مسؤوليته واعترافه بذنبه كقوله تعالى: { رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا } ﴿آل عمران : ١٩٣﴾، فكل هذه الآيات تشير الى مسؤولية الإنسان في اعماله وافعاله، ونجد في الآية الكريمة السابقة حلا جذريا لمسألة الحرية والقضاء والقدر فيما اذا كان الإنسان مجبرا ومسيرا، ما كان ينفعه الدعاء لطلب المغفرة من الله، ولكن مادام الإنسان مأذونا بطلب المغفرة من الله، إذن هو حر فيما يفعله ويتحمل نتائجه وهذه نتيجة منطقية لاشك فيها، وهناك احاديث كثيرة تؤكد ما نقوله، فمثلا في حديث عائشة ▲ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم « لا يغنى

---

(٣١) ينظر: محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٤، ص٧٦.

(٣٢) ينظر: يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الاسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص ١١٦.

(٣٣) ينظر: ت. ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة: محمد ابو ريدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٥، ١٩٨١، ص ٧٨.

(٣٤) ينظر: البوذية والهندوسية، كمال جنبلاط واخرون، دار البراق، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٤٢.

(٣٥) ينظر: محمود احمد صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الاسلامية في اصول الدين، المعتزلة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص ١٥٠.

حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وان البلاء ينـزل فيلقاه الـدعاء فيعتلجان الى يـوم الـدين »[٣٦]، وفي حديث اخر من ابن عمر عن رسول الله قال: « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء » وفي حديث ثوبانّ عن النبي قال: « لا يرد القدر الا الدعاء...» [٣٧]، فكلّ هذه الاحاديث صريحة بأنّ القدر ليس بمعنى الجبر مما ينفي حقيقة القول بأنّ الإنسان مجبر.

الا ان المعتزلة يستعرضون ادلة عقلية لإثبات كلامهم في حرية الإنسان فإنها تقوم على ما يلزم مـن انكـار هذه الحرية من تعارض مع العدل الالهي، اذ لو كان الظلم والفساد من قضاء اله لاتصف الله بـذلك، ولا يصـدر الشـر او القبح الا عن سفه او جهل، وذلك غير جائز على الله لان الله عالم وطيب، ولـو كـان الإنسـان مجـبرا لـزم ان يكـون الكافر والفاسق مطيعين لله، واستوى الكفر مع الايمان والصلاح مع الفساد، ولو كان مجبرا لما كان هناك وجه لنـزول الشرائع وبعثـه الانبيـاء اذ الكفـر واقـع لا محالـة، والايمـان حاصـل مـن المـؤمنين بعثـت الانبيـاء ام لم تبعـث، نـزلـت الشرائع ام لم تنزل، ولو كان الكافر مجبرا علـى كفـره لكـان امـره بالإيمـان تكليفـا لـه بمـا لا يطـاق [٣٨] وهـذا اشـارة واضحة الى العدل الالهي والحكمة الالهية لان اصدار الفعل على وجـه الصـواب والمصـلحة هـو مـا يقتضـيه العقـل مـن الحكمة، لان العدل تعني وضع الشيء في موضعه ، وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم والظلم بضده، فلا يتصور منه جور في الحكم وظلم في التصرف[٣٩] ، اذن الصواب هـو ان الله يفعـل مـا يريـد بعلـم وحكمـة وعـدل منه فلا يظلم عنده احد حتى وان قلنا ان الله يتصرف في ملكه بصورة مطلقـة بـل الاصـح هـو ان الإنسـان مكلـف بأداء مهمته وان اعماله سوف يقرر مصيره زائدا الرحمة واللطف الالهي، هنا نجد ان احد مؤسسي الاعتـزال(واصـل بن عطاء) في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة يقول: ان الباري تعالى حكيم عادل لا يجوز ان يضـاف اليـه شـر او ظلم ولا يجوز ان يريد من العباد خلاف ما يأمر ويحكم عليهم شيئا ثم يجازيهم على فعلـه وان الله تعـالى اقـدره على ذلك، وافعال العباد محصورة في الحركات والسكنات والاعتمادات والنظر والعلم، ويستحيل ان يخاطب الله العبـد بـ(افعل) وهو لا يمكنه ان يفعل[٤٠]. لان الإنسان في نظرهم مسؤول عـن الحركـات الاراديـة فقـط وقـد حصـروها في السكنات والاعتمادات والنظر والعلم اما غير ذلك مثل وجودنا او امراضنا او نهايتنا او صلة حواسنا بالمـدركات مـن مرئيات ومسموعات وطعوم وروائح فهي اضطرارية بفعل الله. هنـا ذهـب القاضـي عبـدالجبار في موضـوع الحريـة الإنسانية إلى القول: « لا يكلف الله العباد بما لا يطيقون ولا يعلمون بل يقدرهم على ما كلفهم، ويدلهم اليه، ويـبين لهم، ليهلك من يهلك منهم ببينة، ويحمي من يحمي عن بينة »[٤١].

ونحن نعلم انّ لله علم ازلي بكل الاحداث الذي يحدث في الكون من كليات وجزئيات فلا يحدث حادثة الا له به علم بحدوثه وان افعال العباد تعتبر ايضا من الحوادث كما اشـار اليـه رجـال المعتزلـة ، فكيـف يكـون الموقـف مـن الاحداث وان لله علم بحدوثه ؟ هل يمكن ان نقول ان الله له العلم بحدوث الاحداث دون ان يأمر بحدوثـه، فـاذا كـان

(٣٦) ينظر: محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠، ج١، ص٦٦٩.

(٣٧) ينظر: ابن القيم، الداء والدواء، المصدر السابق، ص ١١-١٢.

(٣٨) ينظر: محمود احمد صبحي، في علم الكلام، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٣٩) ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٤٠) ينظر: محمود احمد صبحي، في علم الكلام، المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٤١) ينظر: عبد الستار الراوي، ثورة العقل، المصدر السابق، ص ٣٧-٣٨.

لله علم بحدوثه فقط فهذا لا يعني ان الله قد امر العباد بإحداثه لان العلم بحدوث الشي يختلف عن الامر بحدوثه خصوصا الأحداث الشريرة.

في رأي المعتزلة ان العباد هم الخالقون لأفعالهم مخترعون لها، وان الله تعالى ليس له في افعالهم المكتسبة صنع ولا تقدير لا بإيجاد ولا بنفي، الا انهم مع ذلك لم ينكروا العلم الازلي ، فالله سبحانه وتعالى في نظرهم لم يزل عالما بكل ما يكون من افعال خلقه لا تخفى عليه خافية، فلم يزل عالما بمن سيؤمن وبمن سيكفر، وهذا القول يميزهم ويخرجهم عن دائرة القدرية الخالصة، وان الإنسان فاعل حر مختار يعمل بالقدرة الحادثة التي منحتها اياه العناية الالهية ويتصرف بها ويوجهها حسبما يريد وهذه القدرة تصلح لفصل الضدين : الفعل وعدم القيام بالفعل [٤٢]. وكذلك ذهبوا الى القول بأنّ الله لم يخلق افعال الإنسان بل ان الإنسان قادر خالق لأفعاله (خيرها وشرها) وهو مستحق على ما يفعله من الثواب والعقاب في الدار الاخرة... يتبين من كلام المعتزلة انهم ارادوا تنزيه الله بصورة مطلقة من ان يضاف اليه شر وظلم، وفعل فيه كفر ومعصية، لان الله لو خلق الظلم لكان ظالما كما لو خلق العدل كان عادلا[٤٣].

ومن هنا نجد بأنّ المعتزلة قد بدأت نقطة انطلاقاته الكلامية حول حرية إرادة الإنسان من ان كل قضية مهمة تتعلق بالعدل الالهي والافعال الإنسانية، ومادام الله عادلا فهو لن يفعل الا ما هو اصلح لعباده، ولأنّه خلق العالم لغرض وغاية وحكمة، ولان العمل دون غاية تبرره او حكمة يتوجه اليها ويستهدفها يصبح عبثا، ولما كان الله حكيما عادلا ، فإنه خلق كل شي لصلاح الإنسان وصلاح عالمه، وإنّ الصلاح في رأي القاضي عبد الجبار في كتابه المغني هو « النفع ودفع الضرر، فعليه لا يجب الفعل على الله لأنّه صلاح او اصلح ، لأنّه تعالى لا يفعل مع عباده الا ما ينفعهم لان افعاله كلها حسنة » [٤٤]، اذن فحكمة الله وعدله يكون موجودا في كل ما هو فيه صلاح للإنسان، والحكيم هو من يفعل احد الامرين اما ان ينفع او ينفع غيره، أو كليهما معا.

النتائج

توصلنا من خلال تناولنا لهذه المشكلة الى عدة نتائج هي:

١- مشكلة الحرية الانسانية لم تكن في حقيقتها مشكلة دينية بل كانت مشكلة سياسية ظهرت خلال حكم بني امية، اي ان السياسة تقع خلف المشكلة وليس الدين.

٢- المشكلة ليست محلية خاصة بمنطقة دون اخرى بل هي مشكلة عالمية – كوكبية تناولها المفكرون منذ ظهور الانسان على وجه الارض.

٣- الانسان في جوهره حر و يتمتع بالحرية اذا انعدمت موانعه للقيام بالفعل المراد حدوثها، ونقصد بالموانع (السياسية – الاجتماعية و الطبيعية).

٤- ان الاختلاف الموجود بين المدارس والمذاهب في فهمهم للمشكلة واسبابها جعل من الانسان مرتبكا في افعاله بين الحرية والجبرية.

([٤٢]) ينظر: عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق و العقائد الاسلامية، المصدر السابق، ص ٢٦٢.

([٤٣]) ينظر: علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، المصدر السابق، ص ٤٣٨.

([٤٤]) ينظر: عبد الستار الراوي، فلسفة العقل، دراسة نقدية، ص ٦٧-٦٨.

٥- ان ظهور المشكلة يرجع الى اشكالية منهجية تتعلق بكيفية تحليل وتفسير وفهم معاني المصطلحات الخاصة بالمشكلة مثل (الحرية – الجبر – القدر – الارادة – العلم – الرحمن – الرحيم).

٦- المقارنة بين صفات الله وصفات الانسان من القدر والعلم والارادة دفعت ببعض الفلاسفة ان يصور الانسان ككائن فوقي له جميع صفات الالهة من ناحية، ومن ناحية اخرى صوروا الانسان ككائن فاقد لكل تلك الصفات. هذه الثنائية في التصوير جعل من الانسان ان يقع في شباك الوهم والتردد بين حريته وفقدانه لتلك الحرية في القيام بالافعال.

قائمة المصادر:

اولا: القرأن الكريم.

١- انين جلسون، روح الفلسفة في العصر الوسيط، ترجمة: امام عبد الفتاح امام، ط٢، القاهرة، ١٩٧٤.

٢- محمد عبده، رسالة التوحيد، دار احياء العلوم، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

٣- احمد خواجة، الله والانسان في الفكر العربي والاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

٤- عبد الستار الراوي، ثورة العقل، دراسة في فكر معتزلة بغداد، دار الرشيد للنشر،١٩٨٢.

٥- عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، مطبعة الارشاد- بغداد ،ط.،١٩٦٧

٦- ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين، اعداد: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ.

٧- الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: ابو محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ، ج١.

٨- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف بمصر، ط٧، ١٩٧٧، ج١.

٩- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بالألفاظ العربية والفرنسية و الإنكليزية واللاتينية، ج١، ط١، منشورات ذو القربى، قم.

١٠-عادل بن سعد وعمرو بن محروس، موسوعة الاسماء والصفات، مجموعة من ائمة الاعلام، ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٦، ج١.

١١-جمال محمد علي الشقيري، الأحاديث القدسية، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ج١.

١٢-أبو بكر بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، (المتوفى: ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ه ،ج٦.

١٣- السيد سابق، العقائد الاسلامية، دار الفكر، بيروت،ط١٩٨٣،٣.

١٤-احمد بن يحي بن المرتضى، طبقات المعتزلة ، دار المنتظر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.

١٥-ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق، هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر، ط١، بدون تاريخ.

١٦- علاء الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (المتوفى: ٩٧٥هـ) تحقيق: بكري حياني - صفوة ، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م،ج٢.

١٧- محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط٢، ١٩٨٤.

١٨- يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الاسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٧٢.
١٩-ت. ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة: محمد ابو ريدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٥، ١٩٨١.
٢٠-البوذية والهندوسية، كمال جنبلاط واخرون، دار البراق، بيروت، ٢٠٠٤.
٢١-محمود احمد صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لاراء الفرق الاسلامية في اصول الدين، المعتزلة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، ط٥، ١٩٨٥.
٢٢- محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠، ج١.

پوختە

ئەم توێژینەوەیە قسەکردنە لەسەر گرفتێکی فەلسەفی بە ناونیشانی (مرۆڤ لە نێوان ئازادی و بێ چارەیدا) وتیشك خراوەتە سەر ئەوەی ئایا مرۆڤ تا چەند ئازادە لە کردار و رەفتارەکانی. لێرەوە ئەم گرفتەمان لە روانگەی چەند رێبازی جیاوازەوە تاوتوی کردووە، لە ئەنجامدا گەیشتنە ئەوەی کە کرۆکی گرفتکە خراپ تیگەیشتنە لە هەندی دەق و بۆچوونی فەیلەسوفان، چونکە مرۆڤ لە جوهەردا ئازادە.
هەروەها بە شێوەیەکی بەراوردکارانە هەندی بابەتی وەك " قەدەر و زانست و ئیرادە " باسیان لێوە کراوە لە نێوان هەندێك سیفاتی خودا و مرۆڤدا، کە ئەمە بوەتە هۆی جیاوازی بیرکردنەوەی فەیلەسوفان دەربارەی گرفتکە.

Abstract

This research is talk about one philosophy problem (Human between freedom and obligating)its put the light on the human , and how long he has a freedom in his conducts. In this way we are choice this problem , and we are talk about many thing. At the end we are reach to the main problem is that un understood about some text of philosopher, because human has freedom originally allow able and analytically in some subject like fate, ability, science) and talk about these subject between some God attribute and human, this problem create different thought between philosophers.